تربية النفس بالطاعة

الشيخ عبد الرحمن الدوسري

إن ما أمر به الشارع من قول وفعل وعلى الأخص الصلاة فيه مصلحة لجسم الإنسان فضلاً عن المنافع الأخرى والأجور المضاعفة عند الله وما نهى عنه الشرع فيه أضرار في الجسم والقلب زيادة على أضراره الأخرى في المجتمع فضلاً عما فيه من الإثم والعقوبات، وتخص الحقد والكراهية والحسد والشك واستعمال الأشربة المسكرة والمخدرة بأصنافها المتنوعة حتى المفتر منها، وقد أثبت الطب الحديث بالتشريح والمناظير المكبرة جدًا أن في الجسم مواد كثيرة متنوعة تدفع عنه ما يعرض له من أدواء وجراثيم مثل الكرويات البيضاء التي تتصادم مع الجراثيم الوبائية وتفتتها أو تبتلعها وغيرها من مواد إضافية وتعزيزات كيماوية يحملها الدم فيتحول بعضها من سائل خفيف إلى شبه نسيج من الخيطان يتجمع حول الجرح الحادث ليضيق مساحته ويجعله يلتئم بسرعة وهذا يسمى في عرف الطب الحديث (فبيد نيوجن) إلى غير ذلك مما بثه الله للدفاع الداخلي في جسم الآدمي مما يطرأ عليه ولكن هذه الوسائل الدقيقة العظيمة ومقاومة الأدواء تتأثر جدًا بما يلتبس به الإنسان من حقد ملتهبًا وكراهية متبرمة وحسد وغضب ينشأ عنها، وبتأثرها لا تستطيع مقاومة عوارض الأدواء فيستعمل المرض في البدن حتى قد يعود خطر (...) إلى تلك الأشياء عن المقاومة بسبب هذه المخلوقات، وإن المشروبات التي بها كحول مسكرة أو مخدرة أو مفترة يكون لها أسوأ التأثير في شل حركة مقاومة الأمراض وزيادة على مما تنقله بها من الأدواء المضرة فإذا تواصل هجوم الأدواء على البدن مع انعدام المدافع فيه اشتعل المرض وامتدت جذوره الفتاكة. فالله لم يحرم على عباده إلا الخبائث التي ينتج عنها الضرر ماديًّا أو معنويًّا وأدبيًّا وروحيا ... ، الخبائث التي تضرهم في الدين والدنيا وتسلب (؟؟؟؟.؟) صحة الأبدان والقلوب والأرواح العزيزة فهو الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، لا إله إلا هو.

وما أمر به عباده فكله خير ونعمة وشفاء ورحمة ومنفعة مادية وأدبية لأموالهم وأفهامهم ومقوية لأبدانهم وأرواحهم فالتوحيد الذي هو أصل الأصول له تأثير عظيم في ضبط الصحة وحمايتها ومدافعة أكثر ما يطرأ عليها من أمراض لأن سبب الأمراض في الغالب هو في (نفيه) أوامر الله من إسراف بأكل أو شرب، وافتراق معصية تحدث أوجاعًا في القلب أو البدن كالزنا واللواط أو إطلاق النظر إلى ما لا يحل والتولع بعشقه ثم التحسر على صعوبة تحصيله والهيام سحر من يتأثر به (الفكرة) فيشفى هو والبدن جميعًا ويصاب بعلل شتى قد يكون من بعضها الشلل أو السرطان، وقد تزداد الآلام إذا انضم إلى ذلك صرف المال دون

حصول المطلوب، فتزداد الحسرة وتتفاقم الأمراض. أو بما يولع به نفسه من المشروبات المسكرة والمخدرة التي يسترسل (معها) طالبًا الشفاء ببعضها من بعض والتعلل بها بفقدان الإحساس كي ينسى ما يجده من الحسرات لعدم تحصيل مطلوب من مال أو رغبة أو معشوق كما قال شاعر هذا النوع في موقف كهذا:

وكأس شربت على لذة *** وأجره تداويت منها به

فإن التوحيد الصحيح الخالص يقوي القلب إلى الخير ويشرح الصدر ويجعل الإنسان متوجهًا إلى الله متصلاً به في جميع أموره منصرفًا إليه بالحب والتعظيم والخوف والرجاء والإجلال والطاعة والانقياد والتوكل والإنابة ودوام الذكر محبة وخضوعًا فيمتلئ القلب من محبته وتعظيمه حتى لا يكون فيه فراغ لغير حب الله وما نزل من الحق بل يكون الله أحب إليه مما سواه وأجل مما سواه، ولا يرى اللذة والنعيم والسرور إلا بذلك ويكون هذا القلب الذي هو ملك لأعضاء قد استكمل ملوكيته ومعنويته من الحياة والعلم وقوة الجنان ونفاذ البصيرة وكمال الرغبة إلى الله والاعتماد عليه والاستلذاذ بذكره وتلاوة كتابه فيكون القرآن ربيعًا لذلك القلب يرتع في حكمه ومواعظه وتوجهاته أعظم ما يرتع بالتنشيط في الربيع المخصب فيكون شفاء لهمه وغمه ومسليًّا له يستغني به عن سواه فلا يألف إلا الطاعات المزكية لنفسه المرغمة لعدوه من شياطين الجن والإنس ولا يكون فيه هوى مخالفا لما في كتاب ربه فيسلم من الأمراض التي تنشأ غالبًا من الفواحش كما قدمنا ثم يتحصن عنها ويحتمي بطاعة الله فتحقق مقتضيات التوحيد ويتفتح للعبد بأن الخير والسرور واللذة والابتهاج، ويستنير القلب بنور الله الذي يكون له فرقانًا يفرق بين الحق والباطل والصحيح والسقيم فيكون نشيطًا في طاعة الله قويًّا في أمره معظمًا لشعائره غيورًا على دينه وحرماته مسارعًا لمرضاته مبتعدًا عن المخالفات التي ينشأ منها الإثم والحرج، مجتنبًا معاصيه محاذرًا منها، عالمًا أن الهوى من أكبر أدواء النفوس، ومخالفته من أعظم أدويتها، ولا يسلم من إتباع الهوى ويحظى بمخالفته إلا من استمسك بالعروة الوثقى بسلوك جميع ما يقتضيه توحيد الألوهية والربوبية فكان له القرآن هاديًا والرسول صلى الله عليه وسلم قائدًا، فلم يتبع نفسه هواها ولم يستجب لشيء من همسات شياطين الجن والإنس أو نداءاتهم بل يحصر استجابته في كل شيء لدعوة الله وندائه متيقنًا أنه لا يدعوه أو يناديه إلا ما يحييه الحياة المعنوية الطيبة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾[الأنفال: ٢٤] جازمًا أن الله أقامه في الدنيا مقام جهاد متواصل بجميع أنواع الجهاد جهاد النفس والهدى وجهاد شياطين الجن والإنس الذين يغرونه بالباطل ويروجون إليه زخرف القول ويزينون له ما يخالف وحي مولاه مما (يمرج) قلبه ويفسد حياته، ثم جهاد أعداء الله الذين يقعدون بكل سبيل يرعدون ويصدون

عن سبيل الله جهادًا ممتنوعًا متواصلاً يقحمهم به عن الوصول إلى غايتهم الدنيئة التي يخدعون الناس فيها بشتى الأسماء والألقاب جازمًا أن من أقام لنفسه هذا المقام واشغلها في ذلك يحصل على الحياة الطيبة النافعة في الدارين ويكون من جند الرحمن المنصورين وحزبه المفلحين، وأن من انعكس أمره فلم يستعمل نفسه من طاعة الله والجهاد في سبيله فتح على نفسه أبواب الشر فغلبه هواه واستهوته الشياطين وانقضت عليه من كل جانب فكسبوا نفسه العزيزة كسبًا رخيصًا وكان من حزب الشيطان قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩] فهكذا مصير الإنسان في حياته لا محالة قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٢] والنفس إن لم يشغلها صاحبها بالحق ويعينها بوحي الرحمن الرحيم شغلته بالباطل وسلكت به خطوات كل شيطان رجيم، فهذا كان لا بد للإنسان من الإيمان بالغيب واستشعار عظمة الله والخوف الشديد من هجوم الموت الذي ما بعده إلا دقة الساعة الكبرى يوم الفزع الأكبر قَالَ تعالى: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٣٥ - ٤١] فالإيمان بالغيب هو مصدر الهداية والرشد والسعادة لأنه يجعل ضمير الإنسان رقيبًا باطنيًّا يراقبه في كل عمل ويخوفه من كل عقوبات الله العاجلة والآجلة فيكون من ناحية خوف ووجل من سوء المصير (؟؟؟) التقصير فيرقب الله تمامًا، ومن ناحية أخرى يكون متعلقًا بالله مقدمًا على طاعته مسارعًا لمرضاته يبذل النفس والنفيس لتنفيذ أوامره في كلماته الحسنى التي تضمنها القرآن فينشغل جسمه وعقله وقلبه بأعمال الخير والهداية من أعمال الشر والغواية، فتتفتح له أبواب الخير والسعادة بالمقاصد الحسنة والأعمال الصالحة وتغلق عن أبواب الشرور باستدامة ذكر الله ومراقبته والاستحياء منه حق الحياء ومواصلة التوبة والاستغفار. قال ثابت بن مرة: (وراحة الجسم في قلة الطعام وراحة الروح في قلة الآثام، وراحة اللسان في قلة الكلام، والذنوب للقلب بمنزلة السموم إن لم تهلكه أضعفته والضعيف لا يقوى على مقاومة العوارض).

قال عبد الباقي المبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب *** وقد يورث الذل إدهانها

وترك الذنوب حياة القلوب *** وخير لنفسك عصيانها

ومن أعظم أمراض القلوب (فتنة الشبهات) التي يقوم بها شياطين الجن والإنس في كل زمان ومكان ليلبسوا على الناس دينهم ويشككوهم في خالقهم بل في جميع أمور الغيب

ويولعونهم بحب الجنس والوطن والمادة، فيحلوا المذاهب المادية والمبادئ القومية الجنسية والوطنية محل الروحانيات التي بها سلامة الصدور وشفاء القلوب ويشغلوهم بالمطربات الشيطانية ولهو الحديث عن ذكر الله وما نزل من الحق لتكون قلوبهم فارغة متألهة للافتتان بالشهوات، وإذا تسلطت على المجتمع فتنة الشبهات مع فتنة الشهوات فقد شقي وضل عن سواء السبيل، وهم يهدون بالأولى للأخرى ليحدها الفراغ حول جميع أنواع الحق الذي تقتضيه عبادة الله فيشغلوه بالباطل كل على حسبه من ذلك الفراغ والعياذ بالله والإنسان لو كان مسلمًا كلما ضعفت في قلبه محبة الله ومراقبته وضعفت فيه الغيرة على دين الله ومحارمه ومالت نفسه إلى ما تألفها وتشتهيها من ملذات الحياة الدنيا دون مبالاة بحكم الله فيها أو بسوء نتائجها، لأنه بحصول ذلك يندفع إليها اندفاعًا لا شعوريًّا يقضي به وطره ويشغل به فراغه الذي حدث له، فإن حصل على شيء من التوفيق ينيب به إلى الله لينجبر الصدع الذي نابه من طائف الشيطان وإن لم يحصل له ذلك استمر في طريق الغي والهوى الذي ينسيه الله فيعاقبه الله بأن ينسيه نفسه فيكون منهومًا بإشباع شهواته التي لا تنطفئ وإتباع هواه الذي (لا يقبل) معذرة ولا تسويفًا فيحل في قلبه الجشع والتلهف على ما يهداه ثم الحسرة والغيظ على عدم نيله مما يجره إلى تناول مسكر ومخدر يغطي عقله ويريح شعوره المتبلبل، وقد يندفع إلى أنواع المشروبات يقصد بها التقوى عن نهمته ناسيًا أنها استنزاف عاجل يطيح بقوته عن قريب، وقد يشرب القبيح المكروه عنده من أنواع الدخان يتسلى به عن وساوس خاطره ووهج صدره، ويعاود أنواع المعاصي للاستشفاء بها عما قبلها أو عن آثار ما فيها وهكذا. وكل ما حصل ويحصل للناس من التمادي في الإثم والفساد وشرب ما لا يليق لهم شربه إنما هو ناتج من ضعف القيام بعبودية الله وتحقيق محبته وتعظيمه وضعف استقبال القلب لذكر الله وما نزل من الحق، وعدم الفرحة الصحيحة بكتاب الله الذي أنزله شفاء للقلوب وعزًا وفخرًا للنفوس المؤمنة التي تعرف قيمتها بين الأمم ما هيأها الله للخيرية واصطفاها لحمل الرسالة وأداء الأمانة وإصلاح الأرض بنور الله وتطهيرها من كل كفر وظلم وفسق وفجور. فمن عرف قيمته وقام بواجبه ورعى أمانته حق رعايتها وحمل رسالته الإلهية الثقيلة سمحت نفسه بها وترفع عن الدنيا والسفاسف.

(.....)وربأ بنفسه وأهاب بها من النزول إلى مستوى الطعام والتشبه بالبهائم في مثل الشهوات، إذ كيف يتدنى بنفسه إلى فعل ما ينهى الناس عنه واقتراب خيانة الله أو ترك ما يأمر الناس بفعله؟ إذ لا يكون صحيحًا حاملاً رسالة ولا صادقًا مع الله ولا شريفًا في نفسه؛ بل يكون كاذبًا دنيئًا متلاعبًا، ولذا قال تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٣] فالذي يعرف قيمته وما اختاره الله له واصطفاه وخوله وحباه من جميع النعم والكرامات يكون مشغولاً بأمرين عظيمين جدًا:

أحدهما: أن يكون مشغوفاً غاية الشغف بحب من أنعم عليه بنعمة الإيجاد والأحاسيس والقوى وتفضل عليه بسائر نعمه وفضله وجوده وإحسانه الدائم المتواصل، ويكون ذاكرًا له ذكرًا صحيحًا في أعماق قلبه متفكرًا في آياته وآلائه وعظمته وجلاله سابحًا في بحر معرفته والتلذذ بذكر أسمائه الحسنى، والفرح بقراءة كتابه العزيز بحيث يمتلئ قلبه من محبته وتعظيمه والاطمئنان لوعده والابتهاج والسرور بذكره جل وعلا فلا يكون فيه فراغ لغير ذلك تشغله به شياطين الجن والإنس من لهو الحديث والخزعبلات والمجون. فإذا كان قلبه على ما ذكرنا سعى بالقيام بشكر الله شكرًا عمليًّا وذلك بحسن التصرف في نعمه بأن يستعملها فيما يرضيه لا فيما يسخطه، وأن يكون ممتثلاً لأوامره ومسارعًا في طاعاته مجتنبًا نواهيه حافظًا لحدوده غيورًا على دينه وحرماته، معظمًا لرسوله مقتديًا به في كل ما يأتي ويذر وأن يقوم بجميع أنواع الجهاد المستطاعة لقمع المفتري على الله ورسوله وتوقير دينه وإعلاء كلمته، فهذا هو الشكر الواجب المطلوب فليس الشكر باللسان الذي يشترك فيه كل الناس بأقوالهم لجوفاء.

(ثانيهما): أن ينشغل بحمل رسالته التي اختاره الله لها واصطفاه لحملها مقدرًا ما هيأه الله له من هذه الوظيفة الشريفة فيتشرف بكتاب الله ويفرح به فرحة عظيمة لا يشبهها أي فرحة بأي نيل يناله، لأن القلب السليم يعرف أنه مهما نال من متاع الدنيا وخزائنها فإن إتحاف الله له بالقرآن أعظم فائدة له من ذلك إذ فيه الشفاء والنور لقلبه والصيانة لجوارحه والعز والسؤدد والتفوق على غيره في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو مصدر عزه وسعادته كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨] فبقوة فرحته وتشرفه بالقرآن ومحبة تنزله جل وعلا واستشعار عظمته يتلوه حق تلاوته بالتدبر الصحيح متيقنًا بهدايته عما سواها ساعيًا في تنفيذ أوامر الله وأحكامه قائمًا حق القيام بحمل هذه الرسالة الشريفة حملاً صحيحًا بتطبيق العمل الذي يكون به أسوة حسنة للناس. أولاً: ثم بالدعوة والتبليغ والدفع به إلى الأمام. ثانيًا: كي لا يسبقه أهل الدعوات الأخرى ويغلبوه لذا عليه أن ينشغل غاية الانشغال بأداء وظيفته الشريفة التي اصطفاه الله لها فلا يكون في قلبه فراغ ولا في أوقاته مجال أبدًا لغير ذلك ومع هذا لا يتبرم ولا يضجر لما يخالطه من المحبة واللذة والغبطة والسرور في ذلك بل يكون على يقين، أن العز والسؤدد والسعادة الكاملة والحياة الطيبة في الدارين إنما هي بتحقيق طاعة مولاة والقيام بوظيفة مولاه وجندية مولاه وحفظ حدود مولاه راجيًا رحمته خائفًا من عذابه المتنوع وبانشغال المؤمن بهذين الأمرين ومقتضياتهما في مقتضاه يكون قد طهر قلبه عما سوى الله وملك جوارحه واستعملها في طاعة الله وضبط أوقاته واستفرغها في خدمة وظائف الله بغاية الحب والسرور

والتشرف والاغتباط ومن كانت هذه حاله فلا تساوره الهموم والأحزان ولا يعتريه السخط والملل لأنه متنعم بما يفعله معتز متشرف بما يسلكه متوكل على الله مستعين به راض من محبوبه جل وعلا صابر على بلائه جازم أنه تربية لنفسه وسبك لضميره أحسن وأحكم من تربية المخلوق للمخلوق الذي يصطفيه في مهمات الدفاع عن مبادئه وكيانه وإذا كان على هذه الحال فلا يكون أن يلهو باللعب والطرب أو ينشغل بلهو الحديث عن مهماته العظيمة ووظائفه الشريفة ولا أن يأكل أو يشرب ما يضر ببدنه أو يخامر عقله أو يفتر نفسه أو يخدر جسمه من أي شيء من أنواع المسكرات والمخدرات والمفترات (كالقات والشمة والتنباك والحشيشة والمشروبات الأخرى) المسكرة منها أو المنعشة ونحوها بما يتعاطاه المترفون أو الفارغون ومبلبلوا الخواطر الذين لم تطمئن قلوبهم ولم تأنس بذكرالله ولم تنشغل بواجبهم مما ذكرنا آنفًا وكل يعتري النفوس مع تناول هذه الأشياء أو الولوع بعشق المحبوبات لديها ناشئ بسبب ذلك فإن المحب لله مشتغل بمقتضيات محبته ولوازمه مستلذاً بمحبته أعظم من كل لذة تحصل بمحبة أي معشوق في الدنيا وأهل الإيمان بعد تجربة توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه يصبحون حنفاء مخلصين له الدين لا يحبون شيئًا إلا في الله ولله ولا يتوكلون إلا عليه ولا يرجون أو يخافون إلا إياه ولا يسألون إلا فيه ولا يوالون أو يعادون إلا فيه ومن أجله فلا يكون للهوى عليهم سبيلاً أو يكون منهم التفات إليه لأنه قد انصرفت عنه إرادة ما سوى الله بإرادته ومحبة ما سواه بمحبته وحقوق ما سواه بخوفه ورجاء ما سواه برجائه وبذلك حققوا آليتهم لله ومحيط الهوى الذي يتخذ إلهًا من دونه فلم يعتريهم في سائر سلوكهم شيئًا مما يزاحم الألوهية ويفتح للشياطين عليهم مقعدًا أو مجالاً لأنهم قد صدقوا بقلوبهم وجوارحهم بمحاربة الشياطين بسلاح وحي الله وتحصنوا منهم بقربه وبطاعته ومحبته فانتعشت قواهم الروحية والمعنوية بقوة إيمانهم ويقينهم وحبهم لربهم وأنسهم به وانشغالهم الدائم في طاعته واشتداد شوقهم إليه ورضاهم بما يصدر منه لفرط حبهم وحسن مقابلتهم للنعمة والمعروف قال ابن القيم رحمه الله: (من غلظ طبعه وكثفت نفسه فهمه هذا والتصديق به فلينظر حال كثير أو كثير) من عشاق الصور الذين قد امتلأت قلوبهم بحب ما يعشقونه من جميل وجمال أو جاه أو مال أو علم وقد شاهد الناس من ذلك عجائب في أنفسهم وفي غيرهم أهـ بتصرف يسير. هو ما بين الخطوط توضيحًا مني.

ولا شك أن ما تتأثر به القلوب والأرواح تنفعل به طبيعة البدن من كل شيء وإذا كان القلب خرابًا من قلة التوحيد والتوكل والتقوى والخشية من الله والتوجه إليه، أو خرابًا من عدم ذلك بالكلية فإنه يكون مقفرًا من روح الله أعزل من ذكره وأسلحة وحيه وصفاته حبه وقربه، ويكون مصروعًا بشيء من أنواع الصرع – صرع الهوى والشياطين – وأكثر الناس صرعى من ذلك لا يفيقون من سكر الهوى الذي بواسطته صرعتهم الأرواح الخبيثة وأسرتهم الشهوات

واستعبدتهم، ففيهم الصرع الأعظم الذي لا يفيض صاحبه إلا عند معاينة الموت إن لم يتداركه الله بلطفه وتوفيقه فيشفي بشفاء الوحي ويصحو ويفيق فينيب إلى ربه وحينئذ يعرف حاله وينظر إليه أبناء الدنيا مصروعين حوله يميناً وشمالاً عدا اختلاف طبقاتهم وشدة إنهاكهم، فمنهم من أطبق به الجنون ومنهم من يفيض أحياناً وتصرعه شهواته وأطماعه وأغراضه، فإذا أفاق أبعد الحق أو بعضه فعمل بعمل أهل العقل واليقين وإذا انتابته أغراضه والضرع بها عمل ما يتلفه ويشقيه في الدنيا والآخرة لهذا تجد أهل المخالفات يعملون ما يخالف العقل الصريح والذوق السليم بحيث لو شرع وفرض عليهم وحثهم الوعاظ على فعله لا يستنكروه وقالوا هذا خرافة – هذا فعل وحشي – فلو أمروا مثلاً بالزنا لقالوا كيف ذلك وجميع بنات آدم أخوات لنا وعلى الأخص المسلمات كيف يكون الإنسان كالحيوان ينزو على أخته ثم يعقبه الآخر – أين العفة أين الصيانة، أين المروءة؟ ولكن سكر الهوى وصرع الشيطان يدفعان (الشيء على) الحقيقة فيتعشق الخبيث النجس مقتديًا بالجمل من حيث لا يشعر وكذلك لو فرض عليه شرب أي نوع من أنواع الخمر لقال في حال عقله الصريح كيف أشرب ما يذهب عقلي ويزيل مني غيرة الإنسانية ويلحقني بالبهائم؟ ولو قيل له تناول الحشيشة أو الأفيون الترياق أو لفات وما شاكله من المخدرات والمفترات لا متصف من ذلك وقال كيف أتناول ما يخدر جسمي ويتلوث ويذهب برجولتي وينزلني إلى مستوى البهائم كما لو قيل لذي العقل الصريح والقلب الذي لم يتأثر بأمراض الغفلة والإعراض عن الله إن شرب الدخان معروف عليك من سيجارة إلى حشيشة ونحوها ويقال الله أكبر كيف أصنع والدخان في صدري؟ كيف أدخله إلى أعماق(؟؟؟؟؟؟)بدني؟ هذه ليست لشريعة حكيم مفكرًا هذا عمل وحشي وتشريع (فاعل) جاهل كيف أنفق الدراهم في شراء هذه الأشياء التي تضر بصحتي وتجعل نفسي رهينة لها أسيرة لتناولها هذا سفه وخبال، لأي شيء أعشقه وأدفع به عزير حالي وثمرة كدي وكدحي؟ هل أعشقه وأرغب فيه لطيب ريحه أو لحسن طعمه أو الالتذاذ بمنظره أو التقوي بتناوله؟ كل هذا مفقود وعكسه موجود الخمر طعمها مر وريحها عفن نتن، والأشياء المخدرة الأخرى كذلك في سوء المنظر والمخبر والريح والطعم والفتر على الفعل والروح والبدن والخسارة في المال، وكذلك الدخان بسائر أنواعه لا ريح منه إلا خراب الأسنان وكثرة السعال وخبث الريح وضعف البدن والقوى وإضاعة المال وإيذاء من يكرهه من الإخوان بإفساد الجو اللطيف عليهم ومن يؤذ إخوانه فلا خير فيه هكذا منطق العقل الصريح المستقيم والذوق السليم اللذين يناديان على كل خصلة حرمها الشارع بقبحها في الباطل وسوء عواقبها ونتائجها في المستقبل من غش وخداع وطفيف ونصب وتلصص واغتيال وفحش وشتم وغير ذلك، لأن الجرائم ليست فطرية تولد مع الإنسان وإنما هي عوارض وقتية تسنح لمرتكبها فيرتكبها لحاجة يضغط عليه أو تأثير بيئة أو سوء توجيه، أما الذي يولد مع الإنسان فهي فطرة الله التي

فطر الناس عليها من الخيارة والعدالة والاتجاه إليه سبحانه ثم ما يهبه الله بها من شريعته المزكية للنفوس المنورة للقلوب، مما يبعثه من رسل وينزله من كتب، فإذا غلبت الناس نفوسهم بما ذكرنا واجتذبتهم الشياطين فسدت فطرتهم ومرجت عقولهم فانحرفوا إلى الأعمال والسجايا والتقاليد التي لا ترضاها العقول السليمة والفطرية المتجهة إلى فاطرها القائمة بشكره وذكره، فإذا سلموا من ذلك كان الحكم للعقل الصريح مؤيدًا وجاءت به الشريعة ثم تتشرف العقول والأرواح بتقبل شريعة الله يحصل لها الكمال المطلق الصحيح الذي تزكى به النفوس ويحصل به الفرقان من يفوز هداية الله ومدده وتوفيقه فتبعد الحقائق عن ما هي عليه لأنها تكون على بينة من ربها بهدايته لها إلى الصراط المستقيم وإنذارها بالعلم والحكمة، فتندفع إلى الطاعات وتنزجر عن المحظورات على بصيرة وعلى حب وتعظيم لله وخوف كامل ومراقبة صحيحة فتنجوا تلك العقول من الصرع الحسي والمعنوي، وتتحرر من رق الهوى والشهوات وعبودية الأشخاص والمذاهب المادية فحيا هؤلاء الحياة الطبيعية التي لا يتعاطون فيها ما يضرهم في دينهم ودنياهم (زد على هنا) ما يربحون من أتباع الشريعة والتأدب بآدابها والتزام فرائض الله وحفظ حدوده مما يضمن لهم السعادة في الدارين وقد قدمنا إلى جميع أمر الله من قول وفعل من سائر العبادات فيه مصلحة ابن آدم وعقله وروحه فضلاً عن مزيد الثواب ورفعة الدرجات وما يكسبونه في الدنيا من السؤدد والنصر والعزة والسلطان.